مروان عبد العال *

صندوق أبو ماهر

ما عاد يليق بي إلاّ السكوت.

أبيح لنفسي أن أفسر صمتك، لأن في فمك ماء. لقد فشلت جميع محاولات استدراجك إلى حديث مسموع أو مرئي أو مقروء، مكتفياً بـ "الصندوق"، قبل أن "تقشع" النور تلك الأجزاء الخمسة من سلسلة ذكرياتك: "تجربتي مع الأيام". ربما وجدتَ صمتك أكثر صدقاً من زيف الكلام وموضة تلفيق الأوهام، فأُعلِّق: "من الصمت ما نطق." كنت تهز رأسك عابساً وتضرب كفاً بكف، ونحن نقرأ على جبينك علامات الحسرة.

دقّت ساعة الرحيل، فاخترقَت بوقعها الثقيل، جدار الصمت القابع فينا، على موج سفر يوغل في ثنايا الصندوق، ويضج بتوتر أسئلة معلقة منذ ستة عقود على عمر يؤرخ درب جلجلتنا، كأنما هو صندوق يجيد الكلام ببلاغة لسان عربي حُبست فيه الأسرار، ولفعتَها بالكتمان إلى حد الإصرار. ألم تؤكد أنه، ولو بعد صبر، لا بد للصدى من أن ينطق؟

فاضت من الصندوق الكرتوني البارد، حرارة شوق عتيق إلى حلم مستحيل يُثقل غياب صاحبه في وعد مؤجل. نطارده بأوطان موقتة ضمّخت قواميس المنافي منذ مسقط أحلامك في "سحماتا"، فسَرَتْ خلالها ظلال ذاكرة طفولية لنشيد صباحي كتبتَه أنت وردّدته أجيال خلفك في ساحات المدارس منذ نعومة الشتات وقساوته معاً: "فلسطيننا لن ننساك ولن نرضى وطناً سواك."

عن بلد يرقد في النسيان، عن فلسطين التي تسجد في الصندوق ذاته، بهيئة حنين مزمن يتكون في الروح، عبر تفصيلات المشهد التسجيلي الطفولي لبيت قروي في مسقط الأحلام، في قرية سحماتا، للقناطر الحجرية، لموقد النار، ولطاقة يطل منها الضوء نحو الرفوف على الجدار الطيني حيث تعبر الحمامات وهي تمارس لعبتها الصباحية. وفي حدقات العيون تورق "الجنينة" التي تظللها شجرة جوز شامخة إلى جوار بئر الماء في بيت والده المزارع حسين سليمان الملقب باليماني. ذكريات المدرسة الابتدائية وطرائفها وأسماء ثلاثية لأساتذته الأوائل. حوادث طفولية صادفته لدى أول خصومة مع طالب إلى أول سرقة تعرّض لها من طالب يرفض ذكر اسمه لأحد ـ يوم "لطش" صندوقه الصغير الذي يحوي "خرجية" شهرية، إلى أول هدية ينالها من شخص وكانت عبارة عن جاكيت من حامد أبو ستة، وأول ربطة عنق من محمد يوسف نجم.

"سأعطيك شيئاً ثميناً، وهدية لن تنساها أبداً": وشوشات همسها أبو ماهر في أذني بحرص شديد وبصوت خافت كأنه يشي لي بسر دفين وهو يوزع نظراته الحذرة في المكان. أشار إلى الصندوق وأكمل: كفى، لقد قررت الصمت، يكفيني ما قلت، وبين طيات الورق يرقد الكلام الذي ما عاد حقاً حصرياً لي وحدي. احمله إلى مكتبك. هذا شأن عام لا خاص، أنتم أحق به.

كأنما للصندوق أقدام تتلمس الخطوة الأولى

(*) روائي فلسطيني.

لبواكير الحس الوطني الذي ترعرع على أعواد المشانق، محمولاً على كتفَي والده إلى ساحة سجن عكا المركزي يوم "الثلاثاء الحمراء" ليكون شاهداً على حبل المشنقة الملتف على أعناق جمجوم والزير وحجازي. ومع والد يبيع البقرة ليشتري بندقية، يشب على تظاهرة مدرسية في ذكرى وعد بلفور، متنقلاً بين أكناف مدرسة البيت المقاوم للاستعمار البريطاني، ومدرسة النقابي الكبير سامي طه الذي تتلمذ على يديه، ويدين له بكل ما اكتسب من خبرة ودقة وحرص على الوحدة والتنظيم. عندما انتقل من العمل الوظيفي في دائرة الأشغال العامة في حيفا إلى العمل النقابي في جمعية العمال العربية، بقي محتفظاً في الملف الأخضر الفاتح بصورة عن بطاقة عضويته في جمعية العمال العربية، ويذكر فيها أن المهمة هي: منظم نقابات، أي مفوض في أعمال التنظيم.

وقائع مريرة سجلت تفصيلات الاقتلاع من تربة الوطن، فكتب: "عندما قاربت الشمس على المغيب، راح الضابط يستعرض الموجودين، واختار خمسة أشخاص كنت واحداً منهم... وأدخلنا نحن الخمسة إلى غرف المدرسة، ثم راح يعطي تعليمات لجنوده، لطرد البقية رجالاً ونساءً من القرية. بدأ الجنود بطردهم وإطلاق الرصاص بالهواء لترهيبهم، وكان أحدهم يصرخ بالعربية: هيا، الحقوا القاوقجي.. الحقوا جيش الإنقاذ.. اذهبوا إلى لبنان.. إياكم أن تعودوا.. سنقتل كل مَن يحاول العودة... بعد التعذيب والتحقيق، نُقل المعتقلون إلى معسكر عتليت للعمل في الأشغال الشاقة."

كأنما الخيمة في الصندوق. هنا وضعت الخيمة أوتادها الأخيرة، في الكرتونة البنية اللون القابعة في زاوية المكتبة، قرب أريكة قديمة، وراء غرفة مجاورة لصالون البيت في حجرة مواربة أرضها مفروشة بسجادة بنية اللون، وفوق الصندوق الكرتوني، راديو "ترانزستور" صغير. يجثم على ركبتيه كأنه في لحظة أداء فريضة الصلاة، كي يضع الراديو جانباً، ويفك عقدة ألياف الحبل المجدول حوله. بهرتني وضعية الصندوق العتيق، أطرافه المقيدة، لونه الباهت، وسطحه المغطى بالغبار، وارتفاع مخروطي من الأعلى، يأخذ الصندوق فيه شكل خيمة مقيدة ومنتفخة تستريح في أحشائها.

الفتى المطيع لم يعاند والده إلاّ مرة واحدة في سنة ١٩٤٨، واعتبرها معاندة محمودة حين صرخ رافضاً ترك القرية قائلاً: لن أتركها ما دمت حياً. كان يريد البقاء في سحماتا. رفض الخروج من القرية، وحاول منع الناس من ترك البلد، لكن أحداً لم يردّ عليه. القلة التي بقيت هناك جرت تصفيتها بدم بارد. جاءت عصابة مسلحة يهودية، وأخذت الشباب لقتلهم، أمّا هو فبقي في قيد الحياة، أسيراً في أقبية التحقيق لدى الاستخبارات الصهيونية. وبعد فترة من التعذيب والترحال بين السجون دفعه الجنود عنوة عبر الحدود اللبنانية.

في الملف الأصفر، مخيم الانتظار على وقع كلام الوالدة... البكاء في المنام فرج... مشاهد الشقاء، رحلة العذاب، وألم الفراق المر كي يصير المخيم في صندوق، يوم وصل إلى العنبر رقم ١٢ في ميناء طرابلس. فلسطيني متعلم يبحث عن عمل، فيجد وظيفة محاسب.

في سنة ١٩٤٩ يترك لبنان إلى دمشق ومنها إلى نابلس لإعادة تنظيم جمعية العمال العربية، وهناك يلقي أول كلمة له في فلسطين بعد النكبة ويقول فيها: "الطريق صعب وشاق وطويل، لكن الحكمة تقول: كل من سار على الدرب وصل." يعود إلى طرابلس ـ لبنان مدرّساً موقتاً للغة العربية في كلية التربية والتعليم، ثم إلى الأونروا منخرطاً في دوراتها التعليمية، وما زال في جعبة الصندوق شهادات الأونروا من الدورات التربوية الأولى في سنة ١٩٥١ حين كان مدرّساً، فمديراً في مدارسها من ثكنة غورو (مخيم الجليل) إلى مخيم برج البراجنة، وبعدها مخيم عين الحلوة.

يترك إرثاً زاخراً في ملفات ملونة تشبه حقائب السفر، وقد تنقلَت معه بين الزنازين والخيام والمدن والأوطان؛ ثورة من الصمت البليغ، في ملفات مصفوفة بألوان متشابهة فقدت رونقها وبانت

تجاعيد الزمن على ثناياها. هي أيضاً مكبلة بالخيوط الليفية ذاتها، في حزمة من ملفات محشوة بأوراق ووثائق وبيانات وتقارير ومجلات ومحاضر اجتماعات نادرة، وقصاصات من جرائد قديمة لخبر أو حادثة لفتته. جميعها مربوط بإحكام ومحشو بقوة في قفص.

كأنما الزنزانة في الصندوق. ينحشر فيها عشرات المرات، في كل مرة تفصله الإدارة عن العمل، بذريعة السؤال: أهي مدرسة أم ثكنة؟ يتابع السير ولا ترهبه حملات قرع الباب في الليالي المظلمة، ولا الاقتياد إلى أجهزة الاستخبارات المدنية والعسكرية، بين اللطم والضرب واللكم والفلقة والشبح في سقف الغرفة. كان ينبض في قلبه عشق أسطوري نبراسه الدائم: "في سبيلك يا فلسطين الموت لن يرهبنا." الأنبياء كانوا معلمين، وهو يعتبر نفسه يحمل رسالة مقدسة في بناء الإنسان وحياكة النسيج الوطني والاجتماعي للمخيم الفلسطيني: إلزام غرف الصف جميعاً في كل مدرسة، تعليق خريطة فلسطين؛ تسمية كل مدرسة بأسماء مدينة من مدن فلسطين أو قرية من قراها؛ إعطاء حصة أسبوعية عن تاريخ فلسطين وجغرافيتها؛ تأدية القسم والعهد الصباحي؛ إنشاء مكتبة في كل مدرسة للمطالعة؛ إعطاء الطلاب دروس تقوية؛ إقامة مجالس أولياء الطلبة؛ مكافحة الأمية؛ الحركات الرياضية والكشفية؛ تبادل الزيارات لتوثيق العلاقات بين شباب المخيمات والمبيت في بيوتهم؛ بناء الصداقات والمراسلات والصلات الوطنية؛ إقامة رحلات مدرسية من المخيمات إلى حدود فلسطين؛ تأسيس النقابات الأولى تحت الخيام: روابط للمعلمين، ولجان للطلبة، ونقابات للعمال. وقد تطور التنظيم الدقيق إلى تأسيس طلائع كشفية تمتد في المخيمات كافة، باسم "فوج الثأر" تارة، و"أبطال الفداء" تارة أُخرى.

كانت العقدة مربوطة بقوة هي الأُخرى، تكبل سواعد الصندوق. أرادها قفلاً متيناً حاولتُ فكّه ففشلت، فعمدت إلى حرق الحبل تلهفاً للمستور فيه، متشوقاً إلى ما سيريني الصندوق.

لقد خرج الفدائي الأول من الصندوق: صورة خالد أبو عيشة بقيت ترافق أبو ماهر في سفره وهي معلقة الآن في صدر البيت. رفيقة دربه أم ماهر، تذكر تلك الليالي بتفصيلاتها كلها، عندما كانت تظل منشغلة بالمهمة التي كلّفها إياها أبو ماهر، وهي ختم صور العمال المنتسبين حديثاً إلى نقابة العمال، فتقضي الليل ساهرة في أداء المهمة، ثم تطلب منه مساعدتها بدلاً من الجلوس ساكناً كأنه ينتظر شيئاً ما تجهله، فيبتسم مازحاً: "هذا شغل نسوان، نحن لمهام أكبر"، قالت لنفسها: "النساء يُعددن الطعام ويخطن الثياب، هنّ للعجن والخبز، لكن أن نقوم بطباعة وختم صور شخصية لبطاقات العمال... فما هو شغل الرجال إذاً؟" لم تدرك معنى كلامه، وأنه ينتظر من الإخوة لحظة الانطلاق ليكون الفدائي الأول والشهيد الأول. وفي ذكرى وعد بلفور في سنة ١٩٦٤، استُشهد خالد أبو عيشة.

ثم وصلت رسالة حب إلى الصندوق، لم يستلمها خالد لأنه لم يعد، فهو الشهيد الأول، فاستلمها أبو ماهر نيابة عنه، من فتاة أحبها وأقسم لها ألاّ يتزوج غيرها. تقول في رسالتها: "لماذا أنت يائس يا خالد؟ لم أعهدك كذلك. إليك البشرى: بالأمس وقبل وصول رسالتك تحدثت مع والدي عن الموضوع فأبدى موافقته، لذلك نحن في انتظارك."

حضرت الفتاة إلى بيروت بعد مدة، قالت وهي تبكي: لقد أرسل إليَّ رسالة تقول: "سأصعد من بيروت إلى الجبل للعمل هناك، قد تلدغني أفعى، قد يقع حجر فيهلكني، وصيتي لك ورجائي، إذا حدث لي شيء وتوفيت أن تتزوجي، هذه أمانتي لك يا حبيبتي."

افتتح رفيقه عبد الكريم حمد مهرجان ذكرى أربعين الشهيد محمد اليماني في سنة ١٩٦٦ في مخيم البداوي مقدّماً شقيق الشهيد ورفيقه أحمد اليماني، فطلب من الحضور السماح له بمناجاة شقيقه الشهيد، فخاطبه بكلمات الاعتزاز والفخر قائلاً:

أخي أبا الهيثم،

علّمتك صغيراً، كيف تمسك اليراع وتستعمل

المداد لتخط اسمك على ورقة سرعان ما تتمزق أو تبلى.

علّمتك كيف تقرأ التاريخ والجغرافيا والقصة أسلوباً محبباً حيناً ومزعجاً أحياناً، علّمتك كيف تعدّ الحساب، حسياً تارة ومجرداً تارة أُخرى.. تمر الأيام، وإذا بك يا أخي من طراز جديد.

علّمتنا يا محمد أن خير قرطاس للكتابة التي لا تمحى هو الأرض، وخير يراع هو الرشاش، وأفضل أنواع المداد هو الدم الزكي النقي الطاهر.

علّمتنا يا أخي وأكّدت لنا يا معلم: أن الجغرافيا لكي تطبع في الأذهان، لا يكفي أن تُدرس عن خريطة معلقة على الجدران، لكنها تُدرس على طبيعة أرض الجليل، وتلال الخليل في روابي المالكية ونابلس ورام الله وبتير.

ولم تنسَ يا معلم، يا أبا الهيثم، أن تعلّمنا في الحساب أن جمع فدائي إلى فدائي يساوي فدائيَّين، بل يساوي عشرة من الصهاينة اليهود العنصريين، الغزاة، الغاصبين.

تمسّك أبو ماهر بقيم الوحدة، فهو لم يدرك قيمتها مجاناً، هو ابن أبيه المجاهد حسين اليماني المقاتل في صفوف الثوار، والذي كان يروي دائماً إحدى الحكايات على مسامعه، يوم رفض تنفيذ أوامر القيادة وأغضب القائد محمد أبو دية في القيام بقتل اثنين من الثوار من قرية حرفيش بتهمة الارتداد عن ثورة ١٩٣٦، ثم تبين له بعد ذلك أن أبو دية كان على حق، فقد كان لغيابهما عذر، ولم يكن ارتداداً عن الثورة. عفيف اللسان لا يخدش سمعة إنسان لمجرد الشبهة والاتهام من دون أدلة، قائلاً: "الكلمة اللي ما بتصيب بتطوش."

ليس عبثاً أن يصير ضميراً للثورة، لأنه معلم في دروس طهارة السلاح، ونظافة الكف، وقوة الأخلاق في صيانة السياسة، فعندما اشتعل الخلاف الداخلي بين الرفض والقبول للبرنامج المرحلي، يوم قام جماعة القبول بالاعتداء على مكتب للجبهة الشعبية، ونحن نتحرّق لردّ الكرامة في ممارسة الأسلوب ذاته، صرخ في وجوهنا: مَن أغلى بالنسبة إلينا، المكتب أم الشعب الفلسطيني؟ فصار تحريم العنف بين الإخوة سياسة عليا، أسست لفكر سياسي ومدرسة أخلاقية سياسية.

هذا الصلب في الرفض، المتشبث بالحق، والمتسلح بكبرياء "اللا" أمام تهافت وهوان "النعم"، متمسك بحلم يمتد من الماء إلى الماء ومن البحر حتى النهر. وكي لا تفقد الغاية الوطنية سموّها، أدرك منذ البداية مآل التسوية، وكان أول من نبّه بخبرته وحسّه إلى كيف ستكون النهاية.

في الصندوق إنسان فلسطيني بكل التفصيلات، جُبلت سماته بنقاء ثوري يتحدى المغريات كلها، وإن كان أكثرها يفسد، فقليلها عنده حرام، قائلاً: إن الثائر الحقيقي مَن يسير بين قطرات الماء ولا يتبلل. يدرك قيمة المال، يوم كتب في سنة ١٩٦٧، شعار: ادفع، واجمع ما استطعت، اقنع واقتصد، ولا تنفق كل ما جمعت.

عرفه المخيم الفلسطيني مثالاً للقائد المواظب عملاً وإيثاراً، هو الذي يبدأ نهاره في السادسة صباحاً. يعيش حياة الناس وبينهم، البعض لا يصدق بساطته ويعتقد أنه مهضوم الحق من رفاقه. حتى طبيب العيادة يفشل في تمييزه لدخول العيادة للعلاج وهو يصر على الانتظار إلى أن يصل إليه الدور ـ لأنه لا يريد أن يسجل عليه سابقة باعتبار أنه مفضّل وأحسن من المرضى الذين يراد له أن يتجاوزهم. ومرة تسلم في منظمة التحرير لجنة وطنية لبناء الملاجئ في المخيمات بعد استهدافها من غارات صهيونية، فحاول أحد أفراد اللجنة بناء ملجأ في منزل عائلته في مخيم البداوي، وهذا يتطلب، وفقاً للقرار، أن يهد البيت القديم ويشيّد بيتاً جديداً فوق الملجأ. عندما علم بذلك أنّب هذا الشخص، واعتبر الأمر إساءة إلى سمعته، وأن أحداً لا يمكن أن يقتنع بأن هذا مكان ملائم للبناء، وإنما هو مجرد "تظبيطة" له لأنه مسؤول. وقد رفض الأمر بقوة، منبّهاً إلى ألاّ يقام ملجأ تحت أي بيت من بيوت عائلة اليماني.

زاره مرة قريب يريد منه وساطة من أجل منحة علمية لولده قائلاً: "أريد تعليم الصبي، ممكن إستحصل على منحة بواسطتك؟" فردّ أبو ماهر: "كم

تقبض؟" فرد الرجل: "نص ليرة يومياً"، فابتسم وقال له: "الحل بسيط، اصرف ربع ليرة وعلّم ابنك عارف بربع ليرة."

أمّا في درس الإيثار، فقد غادر الموقع القيادي في الجبهة الشعبية، إذ كان، بحق، مسؤولاً فوق جميع المناصب، وارتفع إلى مستوى الفضاء الوطني والقومي. بقي معلماً للقادة ومثالاً للأجيال الجديدة، قال يومها: "اليوم أعيش الغضب الذي يرافق الأمر الواقع، وأنا أشعر بأن مهمتي الأولى اليوم هي تفجير ينابيع الحياة والآمال التي تعيش في صدور الأمهات والآباء والأطفال."

أسطورة أبو ماهر لا يليق بها السكوت، ولا أن تسكن الصندوق بدمعة تحجبها الغصة بعد كارثة تدمير مخيم نهر البارد، والتي تذكّرني كيف حُوّلت أوتاد الخيام إلى رايات فلسطينية، فاللوعة ترفض ألاّ تصبح راياتنا أوتاداً لخيام جديدة. هناك في المخيم مكان حسي يأبى أن يغدر بلقمة خبزنا، وإن كان ظلم ذوي القربى أشد مضاضة، وها نحن نتشرد في زواياه كحقيبة سفر، نحمله صندوقاً تقيم فيه النفس ونحن نتنقل بين محطاته في ترانزيت يشبه علاقتنا بالمطر، نحبه ونهرب منه. صار هو وطناً يغرق في جحود المطر لأنه يقترف ذنباً بأنه وطن يحاذي المطر. والمخيم هنا ظل محاذياً للوطن وليس فيه، محاذياً للمدن ولا يقيم فيها. وصار هناك مخيم جديد محاذٍ للمخيم القديم لكن ليس فيه. لا حياد في العشق مطلقاً.

لكل مخيم حكاية تُروى من موضع جرحه، يرنو بحلم واحد نحو قرانا الجليلية، الحاضرة مثل حروف نافرة في أمسية الحنين، تستيقظ كلما غفا الفراق على كل وسادة تحشوها الأمهات من جديد بحكايات جديدة، وينام مع ليل يلامس موسيقى حالمة في تضاريس الضياع.

صندوق أصم، لكنه يأبى الكتمان. أغلبية أوراقه القديمة كان يفرج عنها بأمر من المحكمة كلما برأته من تهمة أوقف بسببها. لكن حرية الشعوب لا يسعها صندوق، والحلم المتربص في هيئة أشكال وطلاسم لها ألف معنى، وتتوزع داخل الصندوق بشكل أوراق أشجار يابسة، وفناجين و"معامل" قهوة عتيقة، وأزهار يابسة، ورسائل من أشخاص، وأوراق "طابو"، ومفتاح البيت العتيق، وكتاب قديم. كلّها في صدورنا ترنو صوب الحق التاريخي، وصوب ضوء ينبعث من شقوق النافذة. ■

صدر حديثاً عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية

أمكنة صغيرة وقضايا كبيرة

ثلاثة أحياء فلسطينية في زمن الاحتلال

تأليف

رلى أبو دحو — لميس أبو نحلة
ليزا تراكي — بِني جونسون
أميرة سلمي — جميل هلال

٢٤٤ صفحة ١٥ دولاراً